أمين الخولى

مجدداً فى التفكير الإسلامى

obeikan.com

obeikandl.com

فى تأبينه للراحل المجمعى أمين الخولى عام ١٩٦٦م استهل الدكتور إبراهيم مدكور أمين مجمع الخالدين (سابقاً) ثم رئيسه.. كلمته قائلاً: «رحمة الله رحمةً واسعةً، فقد كان أمةً وحده، أمةً فى قوله، يدلى بالكلمة فتحفظ عنه، وتعزى إليه، ويرسل الجملة فتصير مثلاً، تحيا بحياة الأحداث وتتردد فى شتى المناسبات، وكان أمةً فى عمله له مسلكه الخاص وطريقته المستقلة، عرف بزيه، كما عرف بمنحاه فى الحياة، يأبى التقليد والمحاكاة ويمقت المجاملة والمسايرة فى غير اقتناع. وكان أولاً واخيراً أمةً فى رأيه يخرج على المألوف ويعارض الشائع والمشهور.. يعتد به ويدافع عنه.. وما أبلغ حجته، وما أعظم إقناعه»[1].

لكن هذا المفكر الذى ولد بشوشاى مركز أشمون محافظة المنوفية فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، والذى أصبح فيما بعد أستاذًا لجيل جامعى، ورائدًا لجماعة أدبية هى الأمناء، والأكثر مجددًا فى التفكير الإسلامى.. هل كان فى سيرة حياته ما ينبئ عن شىء من هذا..؟

إن هذه السيرة تقول: إنه فى سن السابعة من عمره، وفد إلى القاهرة.. تاركًا الريف خلف ظهره، واستقرت وفادته عند جده لأمه، وقد كان شيخًا أزهريًا.. أو أشهر عالم فى القراءات على حد تعبير الشيخ فرج السنهورى. البيئة التى يعيش فيها طفل السابعة كانت محاطة بأقرب الأقارب ممن يخدمون الأزهر الشريف. فكان من الطبيعى أن يكون الاهتمام أولاً وأخيراً بحفظ القرآن، وتولى هذا الأمر جده.. الذى كان يرى أن المدرسة المدنية التى التحق بها الطفل لا تعطيه زادًا ثقافيًا إسلاميًا على النحو الذى يريده هو. ولم يأت عام

١٩٠٥م إلا والطفل الصغير الذى أصبح فى العاشرة قد أتم حفظ القرآن، نتيجة لهذه الرعاية المكثفة من جده. .الذى كان يعدّه لكى يكون أزهريًا. . وما الذى يمنع؟!. . وقد كان استعداد الطفل الصغير يؤهله لذلك، كما أن أقاربه وفى مقدمتهم جده وخاله كانوا من رجال الأزهر. . ولهم إلى الأزهر مداخل وأبواب.

وتحدث المفاجأة التى نقرؤها فى ترجمة كتبها الدكتور كامل سعفان[٢]،والمفاجأة تتلخص فى جملة واحدة: «الفتى كان زاهدًا فى الأزهر زهدًا كبيرًا». . ولماذا زهد الفتى؟ هل لأن الزى الأزهرى لم يكن محبباً إليه، وقد كان يحضر فى المدرسة بالزى المدنى؟ هل لأن طلاب الأزهر كانوا يحضرون دروسهم جالسين على الحصر فى حين يجلس تلاميذ المدارس المدنية على مقاعد خشبية؟ هل لأنه لا يحب مخالطة المجاورين من أهل قريته ومنهم الذى سوف يفرض عليه فرضًا تخفيفًا من أعباء الدراسة؟ أم هل لأنه يرى أن المدرسة المدنية فيها ما يحقق طموحه؟

وكبداية لطريق طويل يعرف صاحبه نهايته استطاع الفتى الصغير أن يقنع جده بالدخول فى مدرسة ابتدائية هى «الحسنية» فيها قسم «للحفاظ».

وربما تنبه الجد إلى مخطط حفيده الصغير نحو المستقبل. وهنا أعلن عدم رضائه عن هذه المدرسة، أو كما تقول ترجمته: «وأصر الجد، وهدده بأن من ترك القرآن فلن يفتح الله عليه. . ولم يقنعه ما فى قسم الحفّاظ بمدرسة (الحسنية) من تمسك بالقرآن».

وفى الجانب الآخر. . جانب الفتى الصغير نراه وقد: «أبى أن يحمل محفظته ويذهب بها مع مجاورى بلده». وفى الجانب الثالث نرى الأب أبو الفتى لم يستطع أن يقاوم «رغبة عمه الجد». . والنتيجة التى كان لا يتمناها الفتى الصغير هى انقطاع الطريق إلى «الحسنية».

ويهيم الفتى على وجهه فى شوارع المدينة. . وفيها يرى فتية فى مثل سنه معممين، لكن لا يذهبون إلى الأزهر. . بل إلى المدرسة الإلهامية، وفيها

مشايخ. . وهنا وجد الحل! فلماذا لا يجمع بين العمامة، والدراسة المدنية حتى يستعيد رضا الجد والوالد من ناحية، وتحقيق رغبته من ناحية ثانية؟

وعلى الفور اتجه إلى المدرسة الإلهامية، وحين لم يلتحق بها اتجه إلى مدرسة أخرى وكتب (إستمارة التحاق. . موقّعًا فى مكان ولى الأمر باسم جده) واجتاز اختبارها السنوى بتفوق، ولم لا؟ والمدرسة كانت فى الأصل ترحب بمن يحفظ القرآن، ويلم إلمامًا بالحساب؟

ودخل هذه المدرسة وانتظم بها ثلاث سنوات. . بعدها منحته المدرسة شهادة تقول: «تشهد مدرسة المرحوم عثمان باشا ماهر بأن التلميذ أمين إبراهيم الخولى أمضى بها ثلاث سنوات بصفته طالبًا متعلمًا، وأنه لم يسبق الحكم عليه بأمر يخل بالشرف».

وكانت السنوات الثلاث بهذه المدرسة تؤهله للدخول فى مدرسة القضاء الشرعى أو دار العلوم. وقد التحق بالأولى، وترك الثانية.

ويحدثنا أمين الخولى[٣] عن نفسه فى هذه الفترة من حياته وحياة مصر، فيقول: «ومال التطور به ميلة ليست بالحقيقة، وإن كانت إلى تجربة فى جمع الثقافتين، الدينية الشرقية والمدنية الغربية، والخروج بمزيج منهما تجد فيه مصر المتطورة ذاتها. وتحتفظ بشخصيتها التى يجهد المستشار الإنجليزى دانلوب فى وزارة المعارف لإخفائها منذ أعوام طويلة.

وكانت قافلة التطور تسير فى صراع عنيف بين الثقافتين، تبدو فيه مناظر مضحكة، من نوع (المساخر)، يرتكبها مفكرون أحرار كبار، فحتى يونيو سنة ١٩١٥م كان صاحبنا ـ يقصد نفسه مع الذين يحلقون لحاهم حتى لا يظهر فيها من الشعر أطول من نبات يوم واحد، وفى أكتوبر من السنة نفسها صار صاحبنا مع الذين يجب أن يكون فى لحاهم نبات أسبوعين على الأقل وإلا عوقبوا».

ويذكر الدكتور كامل سعفان فى ترجمته لأستاذه أمين الخولى[٤] نقلاً عن مقال له بجريدة المصرى عنوانه: «هل أدى الأزهر رسالته الاجتماعية؟» بتاريخ

٢٨/ ٤/ ١٩٥٢م ما يستكمل هذه الصورة: «لكن هذه (المساخر) لم تكن لتقلل من الدور الذى نهضت به مدرسة القضاء الشرعى ـ التى أنشئت سنة ١٩٠٧م ـ ليتلقى الطلاب التجربة السياسية والعلمية والاجتماعية التى أرادتها مدرسة الإصلاح الدينى الحديث، من شيعة محمد عبده ـ وعلى رأسهم سعد زغلول، فأرادوا فى السياسة تجربة استقلالية مصرية، فى معهد لا تمتد إليه يد أجنبية، ويتولى أمر نفسه فى استقلال إدارى وثقافى لا صلة له بوزارة المعارف، ومستشارها العتيد إذ ذاك، كما أرادوا تجربة علمية تلتقى فيها الثقافتان القديمة والحديثة، والشرقية والغربية التقاءً معتدلاً رزينًا لا تجور فيه واحدة على صاحبتها، ولا تنكر واحدة منها أختها وأرادوا مع ذلك تجربة اجتماعية فى الإصلاح بالقدوة والمثل ليشهدها المجتمع فيرى ويسمع ويعى».

إذًا دعوة أمين الخولى للتجديد والتطور والإصلاح.. التى عرفناه فيما بعد.. كانت مبكرة، لعلها نشأت معه وهو بين جدران مدرسة القضاء الشرعى، وربما قبل ذلك.. لحظات إصراره على دراسة تجمع بين أصالة الماضى وتطور الحاضر.

من المؤكد أن هذه النزعة التجديدية فى التفكير الإسلامى التى ظهرت عند أمين الخولى.. فى صورة مذاهب جديدة لتناول المادة الإسلامية لم تنشأ بعد تخرجه عام ١٩٢٠م، ليكون ضمن هيئة التدريس بمدرسة القضاء الشرعى، ولا فى عام ١٩٢٣م حين ركب البحر متوجهًا إلى أوربا ليعمل هناك إمامًا للمفوضية المصرية بروما، ثم للمفوضية المصرية ببرلين، ولا فى عام ١٩٢٧م حين عاد إلى وطنه بفكر جديد ليواصل تدريسه لطلاب القضاء الشرعى، أو فى العام التالى حيث ينقل إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) كمدرس، ثم أستاذ مساعد، ثم أستاذ، ثم رئيس قسم اللغة العربية حتى عام ١٩٥٣م، حيث ينقل ليعمل مستشارًا فنيًا بدار الكتب عام ١٩٥٣م، ومديرًا لادارة الثقافة بوزارة التربية عام ١٩٥٥م.

كما أن هذه النزعة التجديدية عند أمين الخولى لم تظهر مع هذه الإنجازات

الضخمة التى تحققت له فى حياته. فلم تظهر مثلاً سنة ١٩٤٣م حيث كوّن مدرسة هى الأمناء: مدرسة الفن والحياة. تلك التى تعمل لتحقيق أهداف فنية نظرية عملية. وتتلمذ عليها كثيرون من أساتذة اليوم والتى أصدرت عام ١٩٥٦م مجلة «الأدب» لتحقيق هذه الاهداف، كذلك لم تظهر هذه الروح بعد أن عين بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٦١م.

بالقطع لم تظهر هذه الروح التى قوامها «التجديد ـ التطور ـ الإصلاح» فى أى مرحلة من هذه المراحل التى هى بمثابة علامات فى حياة أمين الخولى. وإنما كان ظهورها مبكراً.. بين جدران مدرسة القضاء الشرعى.. لتستمر كمنهج حياة فى أقوال وأعمال وكتابات أمين الخولى.. حتى آخر يوم فى حياته.. ذلك اليوم الذى عاجلته المنية يوم رفض كما تعبر عن ذلك قرينته الدكتورة بنت الشاطئ[٥] قائلةً: «وأبى أن يستجيب لضراعتى، وأنا أشهده ساهراً فى فراشه ليلة بعد ليلة، يعدّ مواد العدد الجديد ـ من مجلة الأدب ـ ويدبر ورقه ونفقاته، وينسق فهارسه، ويصحح تجاربه..

وظهر العدد فى موعده، صباح اليوم السابع من شهر مارس ختامًا لسنة الأدب العاشرة عام ١٩٦٦م..

وفى اليوم نفسه، عاودته الأزمة، ولاح على أفقنا ظل نذير جزع له من جزع من الأهل والأحباب، وتشبثت بالرجاء فى أن يجتازها من عزيمته، والمدخّر من طاقة حيويته.

وغرنى الأمل ـ الحديث للدكتورة بنت الشاطئ ـ وأنا أراه على عهدى به متوهج الحيوية ناضر الفتوة متألق الملامح، إلى أن لمحته عصر الأربعاء المشئوم، التاسع من مارس سنة ١٩٦٦م، يغمض عينيه بعد أن استوعب وجودنا كله بنظرة ثاقبة.. وبدأ المشهد الفاجع لرحلة الإياب..».

هذه الروح التجديدية.. والتى أصبحت بالنسبة لصاحبها أمين الخولى رسالة استمر يضطلع بها منذ كان بمدرسة القضاء الشرعى، حتى فارق الحياة كما رأينا،

هى نفسها التى (همس بها) رئيس مجمع اللغة العربية الدكتور إبراهيم مدكور لتلاميذ أمين الخولى المعروفين بالأمناء مناشداً إياهم أن يواصلوا رسالة أستاذهم، حيث قال: «إن أستاذكم كان صاحب رسالة ولاشك فى أنه لقنكم إيّاها، وكانت رسالته دعوة حارة وصادقة إلى التجديد والإصلاح.. كان ينشد تجديداً شاملاً فى المظهر والمخبر. وأذكر أن مشكلة توحيد الزى شغلتنا معًا فترة طويلة منذ نحو أربعين سنة.. كان يؤمن بالإصلاح إيمانًا جازمًا ويريد به أن يستوعب مظاهر حياتنا على اختلافها فينصب على العادات والتقاليد، ويشمل الأنظة والقوانين، والفكر واللغة فنادى بإصلاح الأسرة، وكتب فى إصلاح الأزهر، ورسم سبلاً فى إصلاح النحو وتطوير اللغة، وكان يمقت الجمود الزائف والتقليد الأعمى، ويرى أن الدين متين، وأن الشريعة سمحة وقد قبلا، ويقبلان كل تجديد وإصلاح، لا يتعارض مع الأصول الكبرى والمبادئ المقررة، ومن آخر مؤلفاته: (المجددون فى الإسلام). أما مجرد محاكاة الغرب، والافتنان ببدعه ومستحدثاته، فلم يكن أقل تحاملاً على ذلك من حملته على السلبية الجامدة التى تؤدى إلى الفناء. كان يهدف إلى إصلاح ينبع من صميمنا، ويربط حاضرنا بماضينا، ويبقى على معالم الحضارة الإسلامية التى تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الغربية..»[٦].

لكن.. كيف كان يهدف أمين الخولى إلى إصلاح ينبع من صميمنا، إصلاح يربط حاضرنا بماضينا، إصلاح يبقى على معالم حضارتنا الإسلامية التى تعتمد على أصول تختلف عن الحضارة الغربية؟.. كيف صنع هذا فى حياته، وأصبح استمراره وتطويره أمانة فى أعناق الأمناء بعد مماته.. هذا بعينه منهج التجديد والإصلاح فى التفكير الإسلامى.

وقبل أن نسجل لملامح وخطوات منهج أمين الخولى فى التفكير، لنا أن نذكر ملاحظة مؤداها أنه بسبب هذا المنهج استهدف صاحبه للعديد من الهجمات، سواء كانت من أبناء جيله أو حتى من هم فى مثل تلاميذه. وعلى سبيل المثال ـ دون الحصر ـ نذكر هنا شكلين لهذا الهجوم:

أولهما: من الأستاذ محمد كيلانى وهو من تلاميذ أمين الخولى. حيث يذكر فى فصل خصصه عن أمين الخولى فى كتابه «فصول ممتعة» الذى نشر فى غضون عام ١٩٥٩م، قائلاً: «وشىء آخر تطرف فيه الشيخ أمين الخولى تطرفًا عجبًا. فهو يقول إنه لا يمكن فهم الأدب العربى فهمًا صحيحًا إلا إذا درسنا البيئة وتعمقنا فى دراستها ففحصنا طبقات الأرض، وحللنا التربة، وبحثنا فى المناخ، ورصدنا الكواكب، وسجلنا حركتها، وأحطنا بالعوامل الجوية إحاطة تامة وألممنا بعلم الوراثة إلمامًا تامًا، وعلم النفس النظرى والتجريبى، وعلم النبات والحيوان، والمؤثرات الاقتصادية والفكرية والحركات الاجتماعية والثقافية. وأنفقنا وقتًا طويلاً فى هذه الدراسات مستعينين بالموازين والمكاييل والمقاييس داخل معامل خاصة. فإذا انتهينا من هذا كله وجب علينا أن نجمع ونعد، ونحصى ونستقصى، ونحلل الورق لنعرف متى صنع، ونفحص المداد لنكشف إلى أى قرن يرجع، ثم نحقق هذه المخطوطات وننشرها، وبعد هذا يمكننا أن ندرس الأدب على ضوء ما وصلنا إليه»(٧).

وبالطبع يلحظ القارئ مبالغة من الأستاذ محمد سيد كيلانى.. لعل مصدرها اندفاع الشباب.. فلو كتب هذا الذى كتبه عن أمين الخولى عام ١٩٥٩م هذه الأيام لتردد كثيرًا فيما كتب أو على الأقل لامتنع عن السخرية بواحد يعدّ من الأفذاذ الذين مهدوا للأجيال التى بعدها.. أقول لكان قد امتنع عن تقديم أمين الخولى ومنهجه فى التفكير بهذه السطور تحت عنوان: «جاحظ هو أمين الخولى بين الكفر والايمان»: «ونظر إلى نفسه فإذا هو محصور بين قسم اللغة العربية، لا يسمع به أحد، ولا يذكره إنسان، فأراد أن يلفت الأنظار إليه، فألقى عمامته وراء ظهره، وارتدى الفاروقية، احتفاظه بزيه العربى، فكان منظره يبعث على الضحك»(٨).

أو ما كتبه أحد أفراد جيله من الأفذاذ وهو عملاق الفكر العربى عباس محمود العقاد.. ردًا على ما كتبه أمين الخولى فى مقدمة كتابه «مالك» والحق أن ما كتبه العقاد على صفحات الأخبار فى يومياته فى الفترة ما بين

٥/١٢/١٩٦٢م إلى ٢/١/١٩٦٣م على مدى أربعة أسابيع وتحت عناوين أربعة هى: «دعوى فى الميزان»، و«عبث لا يسكت عليه»، و«نطق دهرًا وسكت قهرًا»، و«المتهافت بأنفاسه»، والتى أعيد نشرها ضمن المجلد الأول[٩] من مجلدات يوميات العقاد الأربعة، والتى ربما كان قد تردد كثيرًا فى كتابتها لو كان قد كتبها فى مناخ من الحياد التام الذى كثيرًا ما تعرف به كتابات العقاد الكثيرة. ولكن ربما يكون العذر أنها تحولت إلى معركة صحفية بعد أن كان المتصور أن تكون معركة فكرية كمعارك العقاد، التى حركت الحياة الأدبية والفكرية فى النصف الأول من هذا القرن[١٠]. والحق أن العقاد كان حادًا فى رده على أمين الخولى، فنحن حين نقرأ العقاد فى رده على أمين الخولى ندهش من هذه السطور: «قضى أمين الخولى نحو عشرين سنة، يكتب ويشطب ثم يشطب ويكتب فيما يسميه نقدًا تارةً، وفيما يسميه تحليلاً موضوعيًا تارةً أخرى، ومداره كله على موضوعات من الأدب الغربى والثقافة العصرية، أوجز ما يقال عنها: إننا قرأنا فيها كتب النقد والتحليل أكثر مما يحفظ الشيخ أمين من أبيات ألفية ابن مالك مع التواضع الكثير، وكنا نقرأ بعض ما كتب وشطب، ونسمع ببعضه ولا نقرأه، ثم نشطبه جميعًا فلا ترى فيه ما يحتمل المناقشة.

ولعلنا وغيرنا سواء فى النظرة إلى كل ما يكتبه الشيخ أمين! هل رأيتم الريفى الذى يدخل المطعم مرة أو مرتين، وينطلق بعدها إلى مجالس الحاضرة ليعلم الناس كيف يأكلون بالشوكة والسكين؟! من لم يره فقد رأى الشيخ من نقده (الموضوعى) لتلك الموضوعات، وعرف لكل منهما حقه فى المناقشة والتعليق.

ثم ألف الشيخ أمين ـ أو أعاد تأليف كتابه عن الإمام مالك. فقدم له بفصل طويل فى الموضوع أو فى النقد الموضوع ولا مؤاخذة.. وما هذا الموضوع يا ترى؟ ليس مالكًا، ولا ابن مالك، ولا هو كذلك، ولا شبيه ذلك.. كلا.. ولكنه هو الموضوع الذى خلاصته على لسان الشيخ أمين: الموضوع.. أنا التاريخ.. أنا السند.. أنا الموضوعية.. أنا العلم.. أنا العلماء.. أنا.. أنا.. أنا الأمناء.. أنا كذلك.. وكل ذلك.. ولكن من هو العقاد.. موضوع المقدمة دون مالك وأهل مالك؟.. هو بالإيجاز: ما ليس كذلك!»[١١].

ويحتد العقاد فى رده على الشيخ أمين الخولى إلى حد السخرية، حيث يقول: «حكاية الأزياء الخمسة التى يتزيّا بها الشيخ أمين الخولى، أو الشيخ (أمناء بالجملة) كانت معروفة بين ركاب الترام بمصر الجديدة وطلاب الجامعة الذين سعدوا لتمثيل هذا المخزن المسرحى المجتمع فى شخص واحد..

فالقصة التى أصبحت مشهورة الآن عن أزياء الشيخ الخمسة: كرافتة على الجبة والقفطان، وعمامة على الشورت والقميص المفتوح، وصندل إفرنجى بدل القبقاب ـ مع الطاقية البلدية، ورأس عار مع القفطان الفضفاض، ولاسة مع البدلة الإفرنجية تارة والجلباب المنزلى تارة أخرى..»[١٢].

بهذا الأسلوب الساخر رد العقاد على مقدمة كتاب «الإمام مالك» للشيخ أمين الخولى ومنهجه فى الكتابة عن الشخصيات الإسلامية. وذلك المنهج الذى يرى الكثير من أساتذة الجامعة ومؤرخو الأدب ونقاده[١٣]، أنه هو المنهج الأقرب إلى الموضوعية والدقة والإحاطة بالعمل موضوع البحث، ولعله من أنسب المناهج إلى تناول المادة الإسلامية.. وأكثرها استيعابًا لهذه المادة المتفرقة فى صفحات وبطون الكتب القديمة.

لعلنا فى متابعتنا للآثار الفكرية التى تركها أمين الخولى، وخاصةً فى جانب التفكير الإسلامى. تلح علينا ملاحظة هامة، وهى حقيقة تأثر أمين الخولى بالإمام محمد عبده فى تناوله للمادة الإسلامية.

وليس صدفة أن نجد نفس الموضوعات التى حاول الإمام محمد عبده تأملها ودراستها، نجد لها صدى عند أمين الخولى. وفى مقدمة هذه الموضوعات تفسير القرآن، وإحياء التراث، وإصلاح الأزهر.

ولا عجب أن كان أمين الخولى أو غيره من أفذاذ جيله.. قد تأثروا بالإمام محمد عبده. لا عجب على ذلك إذا كان الإمام قد مارس فى تفكيره الإسلامى جوانب متعددة.. هذه الجوانب لها بريقها بالنسبة لمن جاء بعده من المفكرين. ومن صور ممارسته فى هذه الجوانب:

١ ـ أنه كان يمارس التفكير فى الجانب القومى: فى السياسة الوطنية والتربية الجماعية.

٢ ـ ويمارسه فى الجانب الاجتماعى: فى الكشف عن عيوب المجتمع، وبيان مقوماته.

٣ ـ ويمارسه فى جانب العقيدة والدين: ببيان ما يحول دون المسلم أن يكون إيجابيًا، وما يدفعه إلى أن يكون بنّاءً.

٤ ـ ويمارسه فى جانب التوجيه العام ليخلق من المصرى والشرقى المسلم مواطنًا صالحًا.

وفى هذه الجوانب وغيرها التى مارس فيها الإمام محمد عبده التفكير.. نقدًا وبناءً، التزم بشىء واحد هو الثقافة الإسلامية.

وبمعنى آخر.. إن نواة تفكير الإمام محمد عبده فى ذلك كله هى الثقافة الإسلامية. وهو يرى أن الانحراف عن هذه الثقافة هو سبب فساد المجتمع الإسلامى.

ومن هنا وجدنا الشيخ الإمام محمد عبده يهتم برسم منهاج خاص لتفسير القرآن الكريم، والتزم ذلك فى تأليفه «رسالة التوحيد». ويقوم منهجه فى تفسير القرآن الكريم على هذه الأسس:

● إخضاع حوادث الحياة القائمة فى وقته لنصوص القرآن الكريم، إما بالتوسع فى النص، أو بحمل الشبيه على الشبيه.

● اعتبار القرآن جميعه وحدة واحدة متماسكة: لا يصح الإيمان ببعضه وترك بعضه الآخر. وإن فهم بعضه متوقف على فهم جميعه.

● اعتبار السورة كلها أساسًا فى فهم آياتها. واعتبار الموضوع فيها أساسًا فى فهم النصوص التى وردت فيه.

● إبعاد الصنعة اللغوية عن مجال تفسير القرآن، وإبعاد تفسيره عن أن يجعل مجالاً لتدريب الملكة اللغوية.

● عدم اعتماد الوقائع التاريخية فى سير الدعوة إلى الإسلام عند تفسير الآيات التى نزلت فيها.

والشيخ محمد عبده بهذا المنهاج فى تفسير القرآن رسم دائرة تستطيع أن تحيط بالحياة الإنسانية فى حاضر الإنسان المسلم، كما أحاطت فى الماضى البعيد بحياة المسلم على عهد الدعوة وفى العهد القديم منها.

كذلك وجدنا الإمام محمد عبده يهتم بإحياء التراث القديم، ويساهم فى إحيائه، على الرغم من أنه عاب على كتب المتأخرين، ونص على المتمسكين بها إلى حد أن كان تمسكهم بها سببًا فى ضياع مصالح الناس.

والإمام فى ذلك منطقى مع تفكيره العام فى الجانب التوجيهى، لأنه إن عاب كتب المتأخرين، لم ينتقص من قيمة التراث الإسلامى العربى كأساس يجب أن يقوم عليه كل إصلاح، وتبنى عليه نهضة الشرق الإسلامى فى مسايرته للحياة الواقعية.

فاعتماده على هذا التراث من جانب، وتقليله من قيمة كتب المرحلة المتأخرة من جانب آخر، كان لابد أن يوحى بفكرة إحياء التراث القديم.

وقد أسهم بنفسه فى هذا الإحياء، حيث دفع إليه السلطة القائمة إذ ذاك، ورغّب تلاميذه فى هذا العمل. فشرح كتاب «البصائر النصيرية» فى علم المنطق، وإخراج «منهج البلاغة فى الأدب» وغير ذلك.

وفى الجانب الآخر نجد أمين الخولى يهتم بذات الموضوعات، ولكن على طريقته وأسلوبه، الذى ولاشك لا يمكن أن يختلط بأسلوب غيره، أو أن شخصيته تذوب فى شخصيات أخرى. بل ربما تنفرد شخصية أمين الخولى إلى درجة التصور بأنه يختلف مع من تأثر بهم، وهذه من طبيعة الأمور. فالمفكر لن يكون كذلك إذا كان صورة طبق الأصل من مفكر سبقه. بل إننا نجد فيما نقرأ للشيخ أمين الخولى، وفيما قرأناه لتلاميذه من الأمناء.. نجده واضحًا صريحًا محددًا فى أنه ينتظر من التلميذ أن تكون محصلته فى العلم والثقافة أكثر من

أستاذه. ولعل فى معادلته الشهيرة: (ط = أ + ز) خير دليل على ذلك. فهو يرى أن طالب العلم يساوى الأستاذ مضافًا إليه ما يتلقاه من معارف فى زمن معين.

الشيخ الإمام محمد عبده يطلب إصلاحًا دينيًا، لكن أمين الخولى يطمح إلى تجديد دينى، بل وإلى تطوير فى الفكر الدينى.

وحين يلوح أمين الخولى بفكرته عن تجديد وتطوير التفكير الإسلامى، نجد هناك من يرده بنفس التهمة التى اتهم بها غيره من أفذاذ جيله وهى تهمة «التغريب»؟!

ورب قائل يقول له: «التجديد هو أخذ كل ما عند الغربيين من فكر ومنهج للبحث وحضارة وعادات وتقليد، فى فصل الدين عن الدولة..».

والتجديد هو بعينه الذى جعل مصر لم تتغير بأحداث الشرق الثقافية، وفى مقدمتها الفتح الإسلامى العربى، وإنما بقيت على وضعها القديم الفرعونى فى انسجام تام مع العقلية اليونانية وعقلية البحر الأبيض المتوسط.

والتجديد فى الفكر الإسلامى الحديث بوجه عام.. محاولة ـ لا احتياط فيها ـ لمتابعة التفكير الأوربى فى اتجاهه وأحكامه، وفيم فصل فيه من مشاكل الحياة وفى مدارسه.

التجديد مكانه الجامعة المصرية، والقائمون على أمره هم العلماء الأحرار المستقلون.

ومن هنا وجب على الشيخ أمين الخولى.. وقد خرج علينا بمنهج جديد فى التفكير الإسلامى.. أن يدرك كل هذه الجوانب. ولعل هذا الإدراك من الشيخ أمين الخولى، جعل نقاده يقفون طويلاً عند توصيفه.. هل هو من المجددين حقًا أم أنه من غلاة المحافظين؟ ولعل الحيرة التى تكمن فى هذا السؤال يجسدها الدكتور شكرى محمد عياد فى تقديمه لكتاب «مناهج تجديد» للشيخ أمين الخولى. وقد شاء مؤلف الكتاب أن يجعل أحد تلاميذه يكتب مقدمة واحد من

أهم كتبه، فاختار الدكتور شكرى محمد عياد. ولذلك فهذه المقدمة التى كتبت فى حياة أمين الخولى وبرغبته وتحت نظره وثيقة هامة لا تقل عما فى الكتاب، فيقول: « وكان أشد ما يحيرنا أول ما بدأنا نختلف إلى دروس الأستاذ، هو ذلك السؤال الذى كنا نردده بيننا وبين أنفسنا: من أى الفريقين هو؟ أمحافظ أم مجدد؟ ذلك أنه كان يبدو لنا أحيانًا محافظًا صلبًا فى محافظته، وأحيانًا أخرى مجددًا متطرفًا فى تجديده. كان يعلمنا (أن أول التجديد قتل القديم فهمًا)، فنفهم من ذلك أنه يعتز بالتراث القديم، ويتهم المجددين بالمسارعة إلى نبذه على غير بصيرة. ثم كنا نسمعه يتحدث عن مطالب الحياة المتجددة، وارتباط اللغة بالحياة، ومكان الفن القولى من الحياة ومن اللغة، ويرتب النتائج على المقدمات حتى يصل إلى آراء نحسبه لأجلها من غلاة المجددين، بل من الثائرين، ثم لم نزل حتى فهمنا أن التجديد والمحافظة يلتقيان فى مزاج الأستاذ وتفكيره ويتلازمان. كما يلتقى الواقع والمثال ويتلازمان»(١٤).

وبهذا الفهم قضى الدكتور شكرى محمد عياد.. على جانب كبير من الحيرة، حيث جعل تلازم التجديد والمحافظة عند أمين الخولى تلازم تكامل وانسجام. فاحترامه للعقل البشرى هو الذى يدعوه إلى احترام آثار هذا العقل التى خلفها على مدى العصور، واحترامه للعقل البشرى أيضًا هو الذى يدعوه إلى مطالبة هذا العقل أن يقوم بمسئولياته فى إنارة السبيل أمام كل جيل.

ولكن معانى التجديد والمحافظة لا يمكن أن ينسجمان أو يتلازمان أو يتكاملان إلا فى نطاق منهج دقيق، يحدد لكل من الطرفين دوره فى الحياة. ولهذا فقد كان أمين الخولى منهجيًا فى كل ما كتب، أو كما يقول الدكتور شكرى محمد عياد: «إن حياته العلمية ـ توشك أن تكون كلها سلسلة منهجية مترابطة الحلقات».

ومن هنا نجد أن اشتغال أمين الخولى بتفسير القرآن كان اشتغالاً منهجيًا. مرتبطًا ارتباطًا منهجيًا باشتغاله بالبلاغة، والارتباط قديم يعرفه كل من له إلمام

بتاريخ الثقافة العربية. فأهم كتب البلاغة العربية كانت مرتبطة ببيان إعجاز القرآن، والزمخشرى المعتزلى صاحب الكشاف كان تفسيره كإمام من أئمة البلاغة. ذلك أن البلاغة إذا كانت تتبعًا لخواص الأساليب الجيدة أو كشفًا عن أصول الحكم بالجودة لكلام ما، فلا مفر لها من أن تستقرئ أحكامها من القرآن الكريم. ولعل هذه الصلة الوثيقة ـ كما يقول الدكتور شكرى محمد عياد ـ هى التى هدت أمين الخولى إلى النظر فى مناهج المفسرين فرآها فى معظم الأمر انحرافا عما ينبغى القصد إليه من إظهار بلاغة القرآن. ولذلك أوجب العناية بالتفسير الأدبى للقرآن على أنه المقصد الأول والأساس، يتبعه مقاصد وأهداف.

ونستطيع أن نتبين خطوات المنهج الأدبى فى تفسير القرآن الكريم للشيخ أمين الخولى فى الجزء الخاص بذلك من كتابه «مناهج تجديد»، والذى نراه يستهله بالقول: «إذا ما كان وجه الرأى هو: أن التفسير الأدبى لكتّاب العربية هو أول ما يجب أن يحاوله من لهم بالعربية صلة لغوية أدبية سواء أكانوا عربًا أم غير عرب.

وإذا ما كان وجه الرأى أن هذا التفسير الأدبى ينبغى أن يتناول القرآن موضوعًا موضوعًا، لا قطعةً قطعةً.. فعلى هذا الأساس يكون منهج التفسير الأدبى إذن صنفين من الدراسة، كما هى الخطة المثلى فى درس النص الأدبى. وهذان الصنفان هما:

(أ) دراسة ما حول القرآن.

(ب) دراسة فى القرآن نفسه».

ولتفصيل ذلك يرى أمين الخولى:

ـ دراسة ما حول القرآن: التى تنقسم إلى قسمين: دراسة خاصة قريبة إلى القرآن. وهى ما لابد من معرفته مما حول القرآن، ذلك الكتاب الذى ظهر فى زهاء عشرين عاماً، ثم ظل مفرقًا سنين حتى جمع فى أدوار مختلفة أو أحوال مختلفة. وكان جمعه وكتابته عملاً ساير الزمن طويلاً، وناله من ذلك ما ناله. ثم هناك قراءته ومسايرة هذه القراءة للتطور اللغوى الذى تعرضت له اللغة

العربية، بفعل النهضة الجادة التى أثارتها الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية. فقد كانت هذه القراءات عملاً ذا أثر واضح فى حياة هذا الكتاب الجليل وفهمه.

فتلك الأبحاث.. من نزول، وجمع، وقراءة وما إليها هى التى عرفت اصطلاحيا منذ حوالى القرن السادس الهجرى باسم علوم القرآن. بعد ما تناولها المفسرون المختلفون قبل ذلك بالبحث المجمل والبيان المتفاوت فى الاستيفاء، حسب عناية المفسر واهتمامه. ومثل تلك الأبحاث جد لازمة فى نظر دارسى الآثار الأدبية. ولابد منها لفهم النصوص المدروسية، والاتصال بها إيصالاً مجدياً. وكان أكثر المفسرين يلمون فى مقدمة تفاسيرهم بشىء من القول فى النزول والجمع والقراءات.

ـ وأما دراسة ما حول القرآن دراسة عامة.. فيراها أمين الخولى فى كل ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التى ظهر فيها القرآن، وعاش فيها، وجمع فيها، وكتب فيها وقرئ وحفظ وخاطب أهلها أول ما خاطب، وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بها، وإبلاغها شعوب الدنيا فروح القرآن عربية، ومزاجه عربى، وأسلوبه عربى، قرآنًا عربيًا غير ذى عوج. والنفاذ إلى مقاصده إنما يقوم على التمثيل الكامل، والاستشفاف التام لهذه الروح العربية، وذلك المزاج العربى والذوق العربى. ومن هنا لزمت المعرفة الكاملة لهذه البيئة العربية المادية: أرضها وجبالها، وحرارها وصحاريها، وفيضانها، وسمائها بسحبها ونجومها وأنوائها، وجوها بحره وبرده وعواصفه، وأنسامه وطبيعتها بجدبها وخصبها وبخلها، ونباتها وشجرها... إلخ.

ويؤكد أمين الخولى أن كل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية، وسائل ضرورية لفهم هذا القرآنِ العربى المبين. وكذلك كل ما يتصل بالبيئة المعنوية، بكل ما تتسع هذه الكلمة من ماضى سحيق وتاريخ معروف ونظام أسرة أو قبيلة أو حكومة فى أى درجة كانت، أو عقيده بأى لون تلونت، وفنون مهما تتنوع، وأعمال مهما تختلف وتتشعب. فكل ما تقوم به الحياة الإنسانية لهذه العروبة.. وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربى المبين.

ـ الخطوة الثانية من خطوات المنهج الأدبى فى تفسير القرآن للأستاذ أمين الخولى، وهى دراسة القرآن نفسه. وتبدأ بالنظر فى المفردات، والمتأدب يجب أن يقدر ذلك: تدرج دلالة الألفاظ، وأثرها فى هذا التدرج يتفاوت ما بين الأجيال، وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية، وعوامل حضارة الأمة، وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية، فى تلك الحركة الجياشة المتوثبة التى نمت بها الدولة الإسلامية، والنهضة الدينية والسياسية والثقافية التى خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة.

ويشير أمين الخولى إلى حقيقة هامة: هى أنه وقد تداولت اللغة العربية فى تلك النهضات أفواه أمم مختلفة الألوان والدماء، والماضى والحاضر. فتهيأت من كل ذلك خطوات تدريجية فسيحة متباعدة فى حياة ألفاظ اللغة العربية. حتى أصبح من الخطأ المبين أن يعمد متأدب إلى فهم ألفاظ هذا النص القرآنى الأدبى الجليل، فهمًا لا يقوم على التقدير التام لهذا التدرج والتغير، الذى مس حياة الألفاظ ودلالتها، وعلى التنبيه إلى أنه يريد ليفهم هذه الألفاظ فى الوقت الذى ظهرت فيه، وتليت أول ما تليت، على تاليها الأول (عليه السلام). وهذا هو أحد الاعتبارات الجوهرية التى تقف فى وجه التفسير العلمى للقرآن.

بعد ذلك يشير أمين الخولى فى منهجه الأدبى لتفسير القرآن إلى مراعاة التفسير وعلم النفس، والتفسير وعلم الاجتماع.

ويختم أمين الخولى منهجه الأدبى فى تفسير القرآن بالقول: «لقد وصفت الذى وصفت من منهج التفسير الأدبى، ومطالبه الجليلة، وأنا ذاكره ما لا أنساه أبدًا، كلما شرحت المنهج الدقيق لدراسة أدبية أو غيرها. فأقول للمستكثرين:

مهما تكن لهذه المطالب من أثر يثقل خطانا، ويؤخر ثمار دراستنا، ويشعرنا بالنقص، ويعود علينا باللائمة.. فإن هذه هى الحقيقة، ولن نكذب على أنفسنا وعلى الأجيال، فنزعم الكفاية الكاملة، والقدرة الموفورة، ولئن لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص، فذلك أجمل بنا من التزيد الزائف..

وليس الذى نبغيه من هذا المنهج مستحيلاً ولا بعيد التحقيق. فقد شعر أسلافنا بجملته، وقاموا ببعضه للقرآن، ثم قام المحدثون به كله لكتبهم الأدبية والدينية.. ولن نكون نحن بين هؤلاء وأولئك الضائعين».

وننتقل بعد عرض خطوات التفسير الأولى للقرآن الكريم.. للأستاذ أمين الخولى إلى منهجه فى تناول المادة الإسلامية. وعلى وجه الخصوص منهجه فى الكتابة عن الشخصيات الإسلامية فى الإسلام، وفيه نقرأ[١٥] ملامح هذا المنهج، حيث يقدم مخطوطة من مخطوطات المفكرين المسلمين، ويكملها من كتاب أحد المفكرين بعد ذلك، ويدون قول القدماء بعبارتهم فى فكرة تجديد الدين. ثم يكمل هذه الصورة التاريخية بترجمة من سموهم من المجددين.. ترجمة تقصد إلى بيان أعمالهم وأفكارهم فى التجديد.

ويقصد من وراء ذلك سببين.

أولهما: أن يدع أصحاب هذا التراث المؤمن بالتجديد يتحدثون عن أنفسهم عن التجديد الدينى، يصنفونه ويسلسلون روايته.

فإذا حدّث أصحاب القديم عن التجديد حديثهم الذى نرى نصوصه. وبدأ حديثهم هذا مبكرًا منذ حوالى القرن الثالث الهجرى ـ مثلاً ـ لم يبق بعد ذلك مقال لقائل، ولا اعتراض لمعترض. ولم تعد فكرة التجديد بدعًا من الأمر يختلف الناس حوله، فتخسر الحياة ضحايا من الأشخاص والأوقات، مما ينبغى أن تدخره هذه الحياة لتفيد منه فى ميادين نشاطها.

والسبب الثانى الذى يشير إليه أمين الخولى فإنه بإحياء نص من التراث وفاءً له وبرًا به، وعرضاً للون من تفكير أصابهم، وتناولهم للقضايا الحيوية، وتعبيرهم عنها.

وينبه أمين الخولى إلى أن هناك فرقًا فى التناول المنهجى بالنسبة للترجمات العادية للشخصيات الإسلامية، وشخصيات هؤلاء المجددين.

فالترجمات العادية ترسم شخصيات المترجم لهم رسمًا عامًا تخطيطيًا، لأن هذا الصنف من الترجمة تستقل به الفصول الطوال أو الكتب المفردة، يجمع فيها كل ما يتصل بحياة المترجم، وينقد ويحلل ويستنتج منه إلى آخر هذه الخطوات للمنهج الدقيق. والذى يلحظه القارئ لأعمال أمين الخولى فى كتاب «مالك بن أنس: ترجمة محررة».

أما ترجمة هؤلاء المجددين فيمكن وصفها بأنها ترجمة تجديدية تتبع الأعمال التجديدية للشخصية موضوع الدراسة، فإذا كان المجدد حاكمًا كعمر بن عبد العزيز (مثلاً).. كانت العناية فى ترجمته بالأعمال التى فهم بها الإسلام وفسره، وهى اليوم مما يصحح فهمنا للدين، ويسدد خطانا فى العمل. وإذا كان المجدد عالمًا كالشافعى أو الغزالى أو البقلانى (مثلاً).. كانت العناية فى ترجمته بالأفكار والآراء التى أبداها فى الإسلام وتفسيره، وهى اليوم مما يصحح فهمنا للدين ويسدد خطانا فى التطور الحيوى. ويقرر أمين الخولى فى توصيفه لمعنى المجدد أن فى تصرفات المجددين وتفكيرهم مالم تصل إليه الحياة اليوم، أو قل مالم تجرؤ عليه. لأن المقلدين قد ألقوا بجمودهم فى الفهم والتصرف جنبًا أو ظلامًا أخفى حقيقته وحجبه عن الأنظار فلم يعرف.. لكنه فى عمل الحاكم المجدد، وفى فكر العالم المجدد لا يمكن أن يلقاه أحد بشىء من هذا الاستغراب أو ما يشبهه.

ومن هنا يبدو التباين واضحًا تمام الوضوح بين التجديد والتطور فى التفكير الإسلامى الذى يطلبه أمين الخولى وهو مرتبط بأصالتنا وثقافتنا الإسلامية، والتجديد الدينى الذى يطلبه والمرتبط بثقافته وحضارة الغرب.

وهكذا يستقر الأمر ـ كما يقول أمين الخولى[١٦] فى فهم التجديد وما فيه من تطور فى التفكير الإسلامى بأقوال القدماء أنفسهم، وبتقرير العصريين بضرورة هذا التطور، وتحقيقه فى كل شىء. وبذلك يمكن القول باطمئنان: «إن التجديد الذى يقرر القدماء اطراده فى حياة الدين، ووقوعه فى كل نقلة من انتقالات الحياة التى تمتلئ بالقرون، إنما هو التطور مآلاً..».

هو الأمر الذى جعل تلميذه، وخليفته فى رئاسة تحرير مجلة الأدب الأستاذ عبد المنعم شميس يقول: «وقد كانت نظرية الشيخ أمين الخولى فى دعوته إلى تجديد الفكر الإسلامى، تقوم فى الأصل على فكرة بعث الصفوة القادرة على إقامة الدعوة الصحيحة لحركة البعث الجديد، ولم تكن هذه الغوغائية من أهداف الدعوة؛ لأن الصفوة القادرة على فهم رسالة التجديد منذ البداية، هى التى تستطيع فى ـ واقع الأمر ـ صنع القيادات الواعية التى تقود الأمة الإسلامية نحو الغد..

وكانت رسالة أمين الخولى فى الواقع هى تقديم هذه القيادات فى مختلف الاتجاهات الثقافية والأدبية والعلمية..

وأعتقد ـ الحديث للأستاذ عبد المنعم شميس ـ أنه كان يعتقد أن صنع الصفوة المفكرة العاقلة العالمة يمكن أن يؤدى إلى إحداث النهضة التى كان يحلم بها، وهى فكرة فلسفية وليست جماهيرية. على كل حال حتى لو كانت الدعوة هى وصل الفن بالحياة كما كان يقول، أو فيما قال أيضًا وصل الدين بالحياة»[١٧].

●●●

وبهذا المنهج سواء فى تفسير القرآن، أو فى تناول الشخصيات الإسلامية عادية كانت أو مجددة.. استطاع أمين الخولى أن يختلف عن أستاذه الذى تأثر به، وهو الشيخ محمد عبده، وأن يحتاط فى فكرته عن التجديد والتطور فى التفكير الإسلامى، فلا يصبح بوقًا من أبواق التغريب. والسبب كما قلنا منذ قليل؛ لأنه ارتبط فى فكرته عن التجديد والتطور بأصالتنا وثقافتنا الإسلامية الممتدة إلى واقعنا الراهن.

وبهذا المنهج أيضاً اتسمت أعمال أمين الخولى فى التفكير الإسلامى فوجدنا سمة من سمات التفسير الأولى للقرآن فيما كتبه تحت عنوان: «من هدى القرآن»، ونجد سمة هذا المنهج فيما كتبه تحت عنوان: «المجددون فى الإسلام»، كما نجده أيضًا فى كتاب «مالك بن أنس.. ترجمة محررة» وغير ذلك من أقواله وكتاباته.

ففى كتابه «من هدى القرآن» يطبق منهج التفسير الأدبى للقرآن، الذى يتميز عن مناهج التفسير المختلفة المتعددة بالأثر أو بالرأى المتأثر بالثقافات المختلفة، وهذا التفسير الأدبى عند أمين الخولى هو الذى يجب أن يتقدم كل محاولة، لمعرفة شىء من فقه القرآن أو أخلاق القرآن أو عبادات الإسلام ومعاملاته.

هذا الكتاب الذى أعده مؤلفه أمين الخولى صدى للتفسير الأدبى، يحفظ لهذا المنهج الذى بشر به صاحبه بعدة خصائص، منها أنها: تقصد إلى التدبير النفسى والاجتماعى فى القرآن للحياة الإنسانية وترى أن هذا هو المجال الخاص للقرآن، وهو السبيل لتحقيق أهداف الرسالة الإسلامية وتأثيرها على الحياة.. أما ما وراء ذلك من علم طبيعى أو رياضى أو حقائق فلسفية أو كونية فلا تؤمن هذه الأحاديث بأن القرآن يقصد إلى شىء منها، وإنكار التفسير العلمى قضية من كبريات قضايا المنهج الأدبى فى التفسير، لعل القارئ يجد جملة منها فيما كتبت فى مادة «تفسير» فى ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

● أنها تعمد إلى معانى الآيات القرآنية التى تؤديها ألفاظها العربية المبنية، كما كان يفهمها أهل العربية فى عهد نزول القرآن. ولا تجاوز ذلك فتحمل ألفاظ القرآن شيئًا من المعانى الباطنية أو الإشارية، أو التأويلات المذهبية أو الصناعات التى تنشط لها علوم العربية من نحو منطقى بعيد عن الطبيعة اللغوية، أو بلاغة فلسفية، نظرية نائية عن الأجواء الفنية.

● أن موضوعات كتاب «من هدى القرآن» تتجه كما هو ظاهر مما ذكر من موضوعاتها المحددة إلى تفسير القرآن: موضوعات لا سوراً وأجزاءً وقطعاً متصلة، على درب من الترتيب.. بل هى تتبع ما يخص موضوعاتها من آيات فى مختلف السور والأجزاء القرآنية، لأن هذا القرآن يفسر بعضه بعضًا، ولأن الترتيب القرآنى ـ كما هو معروف ـ يعين على ذلك ويؤيده.. وتلك أخرى من قضايا التفسير الأدبى للقرآن نشير إليها ولا نخوض فيها، إذ ليس ذاك مجالها.

وعلى هذا المنهج تناول أمين الخولى المادة الإسلامية حول القادة والرسل، وفى أموالهم، وفى رمضان.

وفى كتابه «المجددون فى الإسلام» قدم صوراً لبعض المجددين فى مقدمتهم: عمر بن عبد العزيز، والشافعى، وابن سريج، وابن سهيل الصعلوجى، وأبو الحسن الأشعرى، والباقلانى.. مسجلاً أعمالهم التجديدية التى بها فهموا الإسلام وفسروه، وهى اليوم مما يصحح فهمنا للدين.

ولذلك نرى أمين الخولى وفيًا لبرنامجه، حيث يجيب فى كتابه «المجددون فى الإسلام» عن سؤال ماذا تفيد الحياة اليوم مما قدم مجددو القرون الأربعة؟ فنراه يطوف فى بطون الكتب ليعرف ما الذى قدمه المجددون للحياة الدينية؟ أو ما الذى قدموه للحياة الخلقية؟ أو ما الذى قدموه للحياة العلمية؟ بل والأكثر ما الذى قدموه للحياة العاطفية والفنية والحياة العملية؟.

وقدم كتابه الهام «مالك بن أنس.. ترجمة محررة» بهذا الإهداء: «إلى الذين يقدرون تبعات القلم وما يسطرون».

ونرى كما رأى من قبل أساتذة ونقاد أن الأجزاء الثلاثة لكتاب «مالك بن أنس»، ترجمةً محررةً تعدّ من الترجمات النموذجية فى كتابة التراجم لاشتمالها على جوانب ومقومات وأفكار تجعلها فى هذا الموضع العالى. والكتاب مكوّن من ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: عن حياة مالك الأولى، عن تكوينه، وتأثير البيئة فيه ماديًا ومعنويًا، وفيه يطالعنا أمين الخولى بالمرويات عن حياة مالك فى ذلك العهد.

الجزء الثانى: وكان عن مالك الإنسان فى بيته وأسرته، حياته المادية وعاداته وأخلاقه، وصلته الاجتماعية والسياسية بقومه، والمحنة التى تعرض لها وآثارها فى حياته وفكره بعد ذلك.

والجزء الثالث: عن مالك العالم كمنهج وتفكير، وفقهه وتقديره فى الفقه قديمًا وحديثًا، ثم عن قدراته اللسانية والقلمية والتعليمية والكلامية، وعن شخصيته العملية.

أما كتاب «مالك.. تجارب حياة» الذى يعدّ صورة مختصرة لكتابه السابق «مالك بن أنس.. ترجمة محررة» فقد أثار معركة أدبية ـ ذكرنا جانبًا منها فى بداية هذا الفصل ـ بينه وبين العقاد، وقد كان العقاد حادًا وعنيفًا فى ردوده على الشيخ أمين الخولى. ومن المفيد أن نذكر بعض ما جاء فى مقدمة كتاب «مالك.. تجارب حياة»، وهو الذى استفز العقاد. ومن هذه الفقرات التى وردت فى المقدمة: «يزعم زاعم، تبريرًا أو تقصيرًا، ألا حاجة به ـ فى ترجمة يكتبها ـ إلى تتبع الأخبار كافة، والاعتماد على المراجع عامة، لأنه فيما يقال ـ يجد مفتاح الشخصية فى شىء بذاته، فلا يعنيه بعد ذلك أن تكون أفعال معينة قد صدرت عن صاحب تلك الشخصية بعد معرفة الأصل الذى يصدر به مثلها عنه، فلا حاجة به إذن إلى جمع أو تتبع، على الوجه المتزمت المتحرج، الذى يشير إليه ما تذكر من استقصاء..

لكن فى الأمر خطأ قلب أوله آخره، وآخره أوله، وذلك أن أحدًا لا يعرف مفتاح شخصية ما إلا بعد أن يعاشرها، ويحيط بعاداتها، وأساليبها وميولها، وليس إلى ذلك سبيل ما فيمن غبر ومضى، إلا عن طريق التاريخ والخبر، ولا تكون عشرة، ولا معرفة يحل لصاحبها أن يفتح الشخصية، ويقتحم الطوية، إلا بعد إحاطة أوسع وأعمق من إحاطة العشير الحى، لتصرفات عشيره الذى يغدو أمامه ويروح، فتغنى الرؤية والخبرة والفطنة، فى إدراك تصرفاته، وتبين أغراضه، عن الكثير المكرر فيها، لأن بعضها يدل على بعض»[١٨].

ويقول أمين الخولى: «وليس من التاريخ ولا من العلم أن تتناول الترجمة دفاعًا عن المترجم له، وردًا لهجوم المهاجمين عليه، ولا تقديرًا لعظمته، التى هى كذا وكيت، فى الدنيا ولدى الإنسانية.. وليس من ذلك فى شىء أن تسمى عبقريات: محمد وفلان من أصحابه وفلان، ثم يكون الحديث عن فلان آخر من هؤلاء الصحابة، فإذا اسم الكتاب «فلان فى الميزان» وإنما الأمر أن الكل جميعًا فى الميزان، مهما تكن الظروف والأسباب.. فى الماضى أو الحاضر.. فالكل ليسوا إلا بشرًا، والكل يفهم، ثم يحكم عليه، ولا شىء فى الدنيا فى

عقيدة أو تلقين أو محبة تحل الحكم أولاً، ثم الفهم ثانيًا، فى كتابة الترجمة التاريخية الأخيرة بأسباب العلم».

ويقول الأستاذ أمين الخولى فى مقدمته: «ومن الموضوعية العلمية فى تلك الترجمة التاريخية يتميز إدراك المترجم له، بعصره وبيئته وذوقه وعاداته، عن شخصية كاتب الترجمة وحال قومه ومنطق عصره واتجاه رغباته، فلا يحكم على شىء من حال المترجم، مقيسًا بميله، ولا معتبرًا بمثله، ولا يسقط عن نفسه على مشخصات المترجم، له ما يريده مما يعجب الكاتب، ولا يقومه بما يرضيه هو».

●●●

وهذه الفقرات وغيرها من مقدمة طويلة أعطت أربعين صفحة من كتاب «مالك تجارب حياة» هى التى أثارت العقاد وجعلته يرد بمثل هذا الأسلوب الحاد،

مع أن ما كتبه أمين الخولى هو استمرار للمنهج الذى اختاره.. وهو المنهج التجديدى فى التفكير الإسلامى.

●●●

الهوامش

(١) مع الخالدين ـ للدكتور إبراهيم مدكور ص١٣١ .
(٢) أعلام العرب ـ أمين الخولى ـ للدكتور كامل سعفان ص٩ .
(٣) مجلة الأدب ـ ديسمبر ١٩٦٥م.
(٤) أعلام العرب ـ أمين الخولى ـ للدكتور كامل سعفان ص١٤ .
(٥) مجلة الأدب ـ يونيو ١٩٦٨م ـ افتتاحية الدكتورة بنت الشاطئ.
(٦) مع الخالدين ـ للدكتور إبراهيم مدكور ص١٣٣ .
(٧) فصول ممتعة عام ١٩٥٩م ـ للأستاذ محمد سيد كيلانى ص٤٧ .
(٨) المرجع نفسه ص٤٥ .
(٩) يوميات العقاد ـ المجلد الأول ص٤٢٧ .
(١٠) العقاد فى معاركه الأدبية والفكرية ـ سامح كريم ص١٣١ ـ ص١٤٣ .
(١١) يوميات العقاد ـ المجلد الأول ص٤٠٧ .
(١٢) المرجع نفسه ص٤١٥ .
(١٣) راجع الدكتورة بنت الشاطئ، والدكتور عبد الحميد يونس، والدكتور شكرى محمد عياد، والأستاذ عبد المنعم شميس، والدكتور كامل سعفان، والأستاذ فاروق خورشيد.
(١٤) مناهج تجديد ـ للأستاذ أمين الخولى ـ مقدمة الدكتور شكرى عياد.
(١٥) المجددون فى الإسلام ـ أمين الخولى ـ ص٨ .
(١٦) المرجع نفسه ص٣٦.
(١٧) الشيخ أمين الخولى وتجديد الفكر الإسلامى ـ للأستاذ عبد المنعم شميس ص٣٢ من مجلة الثقافة الجديدة ـ العدد الخامس.
(١٨) مقدمة كتاب «مالك.. تجارب حياة» للأستاذ أمين الخولى.

obeikandl.com